مقدمة خاصة

حول ثقافة التثقيف

أرجو ألا ينزعج القارئ الكريم من هذا الاشتقاق المقصود، وألا يعتبره فذلكة لغوية، ولا تعقيدًا فى مرحلة تهاجم فيها العربية حتى من أبنائها ! ومن الأفضل أن نتقبله على الوجه الحسن، والمقصد الصحيح منه، وهو كيف نتعلم مناهج تثقيف شباب الأمة.

الأمر مرهون بعدة اعتبارات يمكن أن تنطلق منها بالفعل ثقافة التثقيف، قاصدة إلى تحقيق الصالح العام من منطوق تربوى قيمى سلوكي، بما يمكن تحديده فى خمس نقاط مبدئية، يمكن أن يضاف إليها الكثير كلما زاد الاهتمام بالموضوع، وأضاف المجتهدون ما يرونه مكملًا لها :

١- سلامة المرجعية وصحة المصادر، والبعد عن ضجيج الكتابات مجهولة المصدر، وتجاوز نبرة المزايدة، أو ادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، مع احترام الاجتهاد شريطة امتلاك الأدوات، وتجاوز الأهواء والمغالطات، والاعتراف بالخطأ ومراجعة النفس أفضل من التمادى فى الباطل، وتقدير رأى الآخر مع حسن الجدل وقبول الحوار؛ ومرونة العرض والاستقبال.

٢- تجاوز الخطابية والإنشائية إلى العلمية المحددة والمنضبطة؛ فلا مبرر للاستغراق فى عالم الوهم، أو الانقطاع إلى الماضوية، دون تقنين الأشياء، أو الوقوف على الحقائق فى حيدة وموضوعية، مع إعادة قراءة الموروث من منظور نقدى يقوم على أسس الحوار والمراجعة والمناقشة، وينتهى إلى وجوب الإحياء

والتجديد، وقبول الإضافة والابتكار، وتيسير الغامض بما يتسق ومستوى التلقى على ما فيه من تعددية الأنماط.

٣- احترام الثوابت وقراءة المتغير من منظور علمي، بمنأى عن الانغلاق أو التعصُّب، وانطلاقًا من وجوب الفهم والوعي، وبناء فكر تحليلى قادر على المناقشة والحوار، بمنأى عن العنصرية والانكماش والتقوقع، وأيضًا بعيدًا من النرجسية والاستعلاء، أو الاستخفاف بمنطوق الآخرين، باعتبارهم أصحاب حق فى طرح رؤية وفكر وموقف وتجربة وخبرة.

٤- الاحتكام إلى الدليل والحجة والبرهان، ومراجعة الخبر التاريخى بين التواتر والإفراد، وقراءة النص بين التوثيق والاحتمال، والاستناد إلى الإقناع بعيدًا عن الطلاسم، أو افتعال الغموض، أو اصطناع الضبابية لإخفاء الحقائق التى قد تتجلى معالمها ـ أحيانًا ـ فى كتابات الآخر.

٥- إعادة قراءة واقعنا الثقافى بدقة، تتطلب منا التحليل الآمن لكل سلبياته، وإعادة تركيبه ومناقشة إيجابياته، قصدًا إلى بناء مشروع فكرى متميز يميل إلى المنهجية الواجب تطبيقها بين مقومات ونتائج، ومبررات وعلل، وقرائن وأدلة، إلى آخر ما يتطلب الحوار من معايير الصدق. والبحث عن جوهر الحقيقة.

لعلنا من هذه المداخل نقترب ـ نسبيًّا ـ من ثقافة التثقيف التى ربما أدلينا فيها ـ أو غيرنا ـ بدلوه، أو اقتربنا من واقعها وطرحنا رؤية مستقبلية مناسبة حولها.

والله ـ سبحانه ـ ولى التوفيق.

عبدالله التطاوي

القاهرة ٢٠٠٥م

تمهيد خاص

المدخل الطبيعى إلى نظرية الثقافة

لم تعد الثقافة ترفا ولا تزيدا، ولا هى من دلالات الوجاهة كما كان الحال فى زمن مضي، ولكنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من ضرورات الحياة، وعلامة من علامات الحضور الإنساني، ومؤشرا من مؤشرات التواجد على ساحة الحدث اليومى لاسيما فى عصر العولمة بكل أشكالها.

ولم تعد الثقافة مطلبا طبقيًّا، ولا حقا خاصا لفئة دون أخري، فالمعرفة بالمنطق الحكمى التقدمى حق للبشر بقدر ما يتاح لهم منها، وبقدر ما يستعدون لاستيعابه من موادها ومعطياتها.

أن يملك المواطن الثروة فهذا شئ عظيم، وموقف أعظم فى هذا الزمان الذي لايعترف بالفقراء ولا يحترم حقوقهم، ولِم هذا الزمان؟ إنها قصة الفقير فى كل الأزمان منذ سطرها الشاعر الصعلوك عروة بن الورد، مبررًا خروجه زعيمًا شعبيًّا لرفاقه الصعاليك:

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأدناهم وأهونهم عليهم ... وإن أمسى له حَسَبٌ وخِير

يباعده القريب وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

ويمسى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطير

قليل ذنبه، والذنب جم ... ولكن للغنى رب غفور

فبدأ الشاعر أمينا مع نفسه وواقعه فى تعرية الصورة الحقيقية لموقع الفقير والغنى على خريطة الحياة، بلا موارارة ولا خلط للأشياء، ولا تزييف للحقائق.

وهكذا يصبح مطلب الغنى والثروة مشروعا إنسانيا طبيعيا شريطة أن يجتهد الإنسان فى تحصيلها – أى الثروة – أو تحصيله – أى الغنى – بعيدا عن استغلال الآخر أو المخادعة، أو غيرها من أساليب ملتوية لا تقرها الشريعة ولا ترتضيها الفطرة القويمة.

أن يملك المواطن الحرية فهذا أغلى ما فى وجوده، لأنها معيار تقدمه ونبوغه، ففى ظلال حريته الحقيقة يستطيع أن ينتج، ويكتب ويبدع ويبتكر، وينطلق فكره عبر آفاق رحبة دون استشعار الكبت أو الاضطهاد، أو الوقوع فى براثن الغبن الاجتماعي، أو القهر الإنساني، فمن خلال حريته يتجاوز الإنسان منطقة التهميش والضياع، ويعلو على كل صور الفقد والحرمان، ولا يقبل بحالات الانهزامية أو الهروبية أو منطق الاستسلام؛ فالإنسان الحر الشجاع يستثمر حريته، وينمى مسارها، فى منعطف التفاعل مع الآخر شريطة ألا يتعدى على حرية الآخرين، أو أن يسلبهم منها شيئًا، فبين الحرية والرق مسافات يصعب التحقق منها، وبين الحريات ذاتها خيوط رفيعة ترقى بها عن حدود الفوضي.

وتظل حرية الشعوب مدخلا إلى مشاركاتها فى حكم أنفسها، فالحرية – بالمعيار الفردي- هى المدخل الطبيعى إلى الحياة الصحيحة، وعلى المستوى الجماهيرى تظل مرتبطة بقدرة الأمة الحرة على المشاركة الفاعلة فى اختيار حكامها وحكمائها ونوابها على النحو الذى يتجلى فى تداول السلطات، واحترام مقدرات الشعوب وتعددية المصادر بين سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية تستهدف – فى مجملها- تحقيق المقاصد العليا للإنسان، وتحقيق التكامل والتصالح فى علاقات البشر.

أن يملك الإنسان السلاح؛ فهذا مطلب عادل شريطة ألا يسئ استغلاله فى العدوان على الآخر، أو النيل من أرضه وعرضه ودمه وإنسانيته، ولا سيما إذا كانت

الحقائق المؤلمة التى تلمسها الشعراء تجعل من الظلم سلوكا إنسانيا يكمل طغيان الإنسان إذا امتلك القوة:

والظلم من شيم النفوس فإن ترى ذا عفـــة فلعلـــه لا يظلـــم

وهو ما يزيد قبحا حين يمتد إلى ظلم ذوى القربى، الذى تألم من جرائه الشاعر القديم استنكارا واستهجانا:

وظلم ذوى القربى أشـد مـضاضة على النفس من وقع الحسام المهنـد

ولذلك كان مطلب القوة لحماية النفس من الظلم أو سطوة الظالم، وجرم المعتدي، وجناية الطاغية، ولم يكن مطلوبا إلا دفاعا عن النفس منذ سطر الشاعر رؤيته:

ومن لم يذد عـن حوضـه بـسلاحه يُهدم، ومن لم لا يظلم النـاس يظلـم

وظلم الناس هنا ليس أمرًا مطلقًا، ولكنه مقيد بالقدرة على الدفاع عن النفس، وممارسة القوة ضد الظالم فى زحام العالم الآثم بالطغيان وهيمنة القوة وسطوة الجبابرة، حيث يصبح مطلب تسليح الإنسان بها أمرًا مهمًّا ومشروعًا مباحًا وضروريًّا، حتى يضع له الخصم اعتبارًا وحسابًا، قبل التفكير فى العدوان عليه، مما يجعل القوة مدخلًا طبيعيًّا إلى سلام الأقوياء.

وقد دعا الإسلام أهله لأن يكونوا أغنياء، وأن يتركوا أبناءهم كذلك حتى لايتسولوا الناس، ولا يتكففوا العطاء، ولا يريقوا ماء وجوههم على أعتاب غيرهم، فكانت اليد العليا خيرًا من اليد السفلي، ومن ثم كان مطلب التكافل والتقارب واردًا فى فريضة الزكاة على حد تحليل أمير الشعراء للظاهرة الاجتماعية:

أنصفت أهل الفقر من أهـل الغنـى فالكـــل فى حـــق الحيـــاة ســـواء

كما دعا الإسلام أهله لأن يكونوا أحرارا، فأمرهم شورى بينهم، وكان المصطفى عليه السلام مدعوًّا إلى المشاورة فى الأمر، وألا ينفرد بالرأى واتخاذ القرار إلا إذا

جاءه الأمر وحيًا إلهيًّا، فكانت حرية الإنسان هبة إلهية، ومنحة ربانية حيث أعطاه ربه منحة العقل، وفتح له أبواب الكون؛ ودعاه لأن يتأمل ويفكر ويتدبر، ويقف عند أسرار العالم، لاسيما أنه مكنه من أدوات العلم منذ استخلفه فى الأرض، وعلم آدم الأسماء كلها، وفتح أمامه أبواب الاجتهاد بعيدا عن الشطط، الذى يجور على الحقائق والمسلمات أو احترام قضايا الغيب أو المساس بقضايا الإيمان.

ودعا الإسلام أهله لأن يكونوا أقوياء، فالمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، ولكنها القوة المشروعة لضمان سلامة البشرية بعيدا عن الطغيان والعدوان، فكان القانون صريحًا " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" فكان مطلب رد العدوان بمثله، والفرق بعيد بين المبادأة بالعدوان والاكتفاء برده، المبادأة طغيان وجبروت وصلف وغطرسة وفوضي، والثانية حماية ووقاية ودفاع وأمان وسلام ورخاء.

ثم نأتى إلى بيت القصيد من مطلب التثقيف الذى يعد المدخل الحقيقى لإنسانية الإنسان، منذ نزلت " اقرأ" فنشأت نظرية الثقافة للأمة القارئة للواقع ولنفسها، الباحثة عن الحقيقة، والكاشفة عن أسرار الكون، فكان العلم طريقها إلى التقدم والبقاء، وكان الجهل كارثة الآخر فى الاستسلام لمعايشة القهر وارتياد الظلام، وكانت "اقرأ" هى مفتاح البشرية منذ كرم الله الإنسان بأن سخر له كل المخلوقات لأنها لا تقرأ، وفتح له أبواب الخير لأنه يتعلم ويعلم، ويأخذ بالأسباب ويختار السبل، ويميز الوسائل، ويتبين الخطوط الفاصلة بين الفضائل والرذائل، بين ما هو خير وما هو شر، ويقف عند الكون مفلسفًا رؤاه وحقائقه، محللًا ظواهره وأسراره؛ فكانت مبرراته التفضيل للمؤمن العالم عمن سواه، وكان تكريم الله للعلماء، وكان تعزيزه للذين يعلمون على من لا يعلمون، وكانت الإشارة إلى سؤال أهل العلم والذكر باعتبار علو منازلهم.

والعلم هو الأصل فى الثقافة إذا أخذناها بمفهومها الموسع الشامل لكل ما يفكر فيه الإنسان، وما يبدعه، وما يحلم به، فكان العلم أصلا فى تكريم الإنسان،

ولذلك طولب به فريضة على المسلم والمسلمة على حد سواء، فكان فرضًا واجبًا، ولم يكن فرض كفاية، ومن ثم كان مطلوبًا أن يسعى الإنسان إليه زمانًا من المهد إلى اللحد، ومكانًا ولو فى الصين فى أقصى جنبات الأرض. من هنا كان تحضر الإسلام وصلاحيته لكل الأزمان والأماكن؛ إذ إنه دين العلم والعلماء، ومطلب التثقيف فيه واجب لأولى النهى وأولى الألباب، وكان تكريم الحكماء والعقلاء على السفلة والجهلاء مكملا لنفس النسق.

فالتثقيف ـ بهذه المعايير – مطلب حياتى وفطرى واجتماعى وديني، يبصر الإنسان بحقائق المعرفة، ويكشف عن واقعه ستار الغموض أو الزيف، وينهى فصلا من صراعه مع قوى الطبيعة والكون لصالحه فى كل الأحوال.

والتثقيف – بهذه المعايير أيضًا – أمر مطلوب لضمان البقاء من خلال امتلاك أدوات القدرة عليه من واقع الفهم والإدراك والوعى والتأمل والتفكير والتحليل والتساؤل؛ الأمر الذى ينمو ويزدهر من خلال قراءة الآخر، لاسيما إذا كان العلم الخلوق الداعى إلى سلام الإنسان مع نفسه ومع من حوله:

والعلـــم إن لم تكتنفـــه شـــمائل للقـــوم كـــان مطيـــة الإخفـــاق

ورحم الله شاعر النيل :

بالعلم والمال يبنـى النـاس ملكهـم لم يـبن ملـك عـلى جهـل وإقـلال

ورحم الله أمير الشعراء حين جمع معطيات تفوق الأمة من خلال قيمها وثوابتها:

الـــدين يـــسر، والخلافـــة بيعـــة والأمر شـورى ، والحقـوق قـضاء

فالعلم والتثقيف هو الحقيقة الخالدة للبحث عن الحقيقة ذاتها، وضمان بقاء الإنسان فى دائرة الوعى والوجود والفهم والمعرفة والإرادة، فما بالنا به – أى

الإنسان- فى عصر التحديات المعرفية والثورات التكنولوجية والتراكم الثقافي، والتنافس العلمى والزحام المعرفى إلا أن يأخذ بالأسباب ويقتحم الصعوبات تحصيلا للعلم، وتأمينا للعقل وإعمالا للفكر وصولا إلى قائمة الأقوياء بما يدعو إلى تحية المثقف ودعوته دائمًا إلى المزيد من التثقيف والارتقاء، ومواكبة أحدث ثورات العلم استعدادًا للانخراط فى معترك التحدى والمنافسة، التى تقتضيها حركة التاريخ وواقع المرحلة.